أصول في التفسير

المحاضرة السابعة

الشيخ/د. محمد بن عبد العزيز الخضيري

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، أما بعد، مشاهدي الكرام فهذا هو الدرس السابع في شرح أصول في التفسير، لشيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين، وقد كنا أخذنا في الدرس الماضي كلامًا يتعلق حول تفسير القرآن وأهميته، ووجوب ذلك على من سمع كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، واليوم نكمل المشوار في هذا الباب، وفي ما يتعلق به من مسائل، ونسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يسدد منا الأقوال والأعمال.

{الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد، فاللهم اغفر لنا، ولشيخنا، وللحاضرين، المشاهدين، وجميع المسلمين.

قال ابن عثيمين -رحمه الله: الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

الواجب على المسلم في تفسير القرآن: أن يُشعر نفسه حين يفسر القرآن بأنه مترجمٌ عن الله تعالى، شاهدٌ عليه بما أراد من كلامه، فيكون معظمًا لهذه الشهادة، خائفًا من أن يقول على الله بلا علمٍ، فيقع فيما حرم الله، فيخزى بذلك يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]}.

ذكر الشيخ في هذا الكلام المتقدم مسألةً مهمةً، وهي: أن من أراد أن يفسر كلام الله -عزَّ وجلَّ- فليستشعر أنه مترجمٌ عن الله -جلَّ وعلَا-، شاهدٌ على كلامه، وعليه أن يؤدي هذه الشهادة بصدقٍ وأمانةٍ، وألا يقول على الله -عزَّ وجلَّ- بغير علمٍ، فإن القول على الله بغير علمٍ من أعظم الذنوب، وأشد الآثام.

فالله -سبحانه وتعالى- لما ذكر الذنوب التي حرمها على عباده، بيَّن أن من بينها القول على الله بغير علمٍ، فقال -جلَّ وعلَا- من قائل: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ومن ينظر في هذه الآية يجد أن الآية تدرجت من الأدنى إلى الأعلى، فأدنى ما ذُكر في الآية الفواحش، وأعلاها ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، فإن قلت: أليس الشرك أعلى من القول على الله بغير علمٍ؟ قلنا: لا؛ لأن الشرك فرعٌ عن القول على الله بغير علمٍ، لأن من أشرك مع الله غيره، لاشك أنه قال على الله قبل أن يشرك، بمعنى أنه قال: إن هذا الصنم، أو هذا المعبود له حقٌ في العبودية، وليس له حقٌ في العبودية، وبهذا نعلم أن القول على الله بغير علمٍ من الذنوب والآثام العظيمة، والله -عزَّ وجلَّ- لما ذكر المحرمات في سورة الإسراء قال: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال هنا: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى

﴿الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾، كذبوا على الله بأي صورةٍ من صور الكذب على الله -عزَّ وجلَّ-، فمن فسَّر كلام الله على غير الوجه المراد، من غير علمٍ، فإنه ممن كذب على الله، ومن قال: إن الله حرم كذا والله لم يحرمه، أو أباح كذا والله لم يبحه، أو أوجب كذا، والله لم يوجبه، فهو ممن كذب على الله، ولذلك قال الله -عزَّ وجلَّ- في سورة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦]، نسأل الله العافية والسلامة.

ومن أجل هذه المعاني فإن بعض السلف تورَّع عن القول في التفسير، فكان سعيد بن المسيب -رضي الله تعالى عنه- وهو سيدٌ من سادات التابعين، كان إذا سئل في التفسير لم يُجب، وذلك لشدة ورعه في هذا الأمر وتحوطه فيه، وكان يُسأل عن أحاديث النبي -صلى الله عليه وسلم- وعن الحلال والحرام فيتكلم، فإذا سئل عن تفسير القرآن، قال: ذهب الذين يعلمون فيما أُنزل القرآن، أو كما كان يقول.

وكذلك من اللغويين من أُثِرَ عنه أنه كان يتورَّع عن القول في التفسير كالأصمعي، الأصمعي كان يتكلم في اللغة، ويتبحر فيها، وهو إمامٌ من أئمتها، ولكن إذا سُئل عن تفسير آيةٍ سكت، ولم يتكلم؛ تورعًا منه؛ لكي لا يقع في القول على الله بغير علمٍ.

فإن قيل: هل هذا المسلك صحيحٌ؟

قلنا: ليس صحيحًا من كل وجهٍ، وليس مذمومًا أو مطلوبًا من كل وجهٍ، بمعنى أن هؤلاء السلف حُمِلَ فعلهم ذلك على مزيدٍ الورع، وإلا فإن عامة السلف قد تكلموا في التفسير، لكن الكلام فيه كان بعلمٍ وبيِّنةٍ وهدًى من الله -عزَّ وجلَّ-، فمن تكلم فيه بعلمٍ، أو نقل كلام السلف، وكلام المفسرين فيه، وهو يفهم مثل هذا الكلام، فلا حرج عليه، ومن لم يكن كذلك، فإنه يجب عليه أن يرد العلم إلى أهله، كما قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧]، ونرى حقيقةً تهاونًا كبيرًا من كثيرٍ من الناس في القول في تفسير القرآن، بمجرد ما يبدو للإنسان من دون أن يكون عنده علمٌ فيه، فيقول: تفسير الآية كذا، تقول له: من أين لك ذلك؟ يقول: هذا واضحٌ، هذا بيِّنٌ، لا يا حبيبي، ليس الأمر كذلك، لأنه أحيانًا يكون هناك أسلوبٌ لغويٌّ لا تفهمه أنت، أو لا تحسن طريقة العرب في بيانه ومعناه، وأحيانًا يحتفُّ بالآية من القرائن ما يجعل المعنى على غير الذي تذهب إليه، وأحيانًا يكون هناك سبب نزولٍ، هو الذي يُبين معنى الآية، وأحيانًا تكون الكلمة في العربية لها مدلولاتٌ، مدلولٌ قريبٌ مستعملٌ عند الناس، ومدلولٌ آخر بعيدٌ، ليس هو المستعمل، وهو المراد في الآية، فمثلًا عندما تسمع قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [الرعد: ٣١]، لما تسمع ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ﴾، تظن أنها من اليأس المعروف، الذي هو انقطاع الرجاء، أو انقطاع الطمع، وهي بمعنى: أفلم يعلم ويتبين، وفي قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ﴾ [النحل: ٤٧]، تظن أنها من الخوف، وهي ليست من الخوف، وإنما هي من

النقص، يعني: أو يأخذهم على تنقصٍ، يأخذهم شيئًا فشيئًا، وأحيانًا قد يرى بعض الناس أن الآية موافقةٌ للعامية، فيظن أن المعنى هو المعنى العامي، فمثلًا ﴿وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي﴾ [الفجر: ٩]، يظن بعض الناس ﴿جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي﴾، يعني أتوا بالصخر إلى الوادي، "جابوا"بمعنى أتوا بكذا، وهي: "جابوا" بمعنى قطعوا، يُقال: فلان يجوب الديار، أي يقطعها، فليست بالمعنى الدارج، أو العامي الذي درج على ألسنة الناس، ومثلًا لو تقرأ قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البقرة: ١٥٨]، فإن الظاهر من الآية إذا قُرأت وحدها أن الطواف بين الصفا والمروة أنه أمرٌ لا حرج فيه، لكنه ليس من واجبات الحج والعمرة، والأمر أو الحقيقة أنه بعكس ذلك، ما الذي يبين هذا؟ يبينه سبب النزول، فإن الآية وردت على سببٍ لا يمكن أن تُفهم فهمًا صحيحًا حتى يُعرف السبب الذي نزلت عليه، وبهذا نحن نقول: احذر يا عبد الله أن تقول في كلام الله بغير علمٍ، وأنا لا أُحذر العامة فقط، فإن كثيرًا من العامة قد يكون عنده من الدين والورع ما يحجزه عن تفسير القرآن، ولكني أحذر من يسمون بالمثقفين، وأنصاف المتعلمين علمًا شرعيًّا، والكُتَّاب في الصحف والمجلات وغيرها، فإن الواحد منهم يظن أنه يفهم القرآن كما يفهم ما يقرأه في صحيفةٍ أو مجلةٍ، ولغته لا ترقى إلى أن تكون كلغة القرآن الكريم، فيقرأ مثلًا قول الله -عزَّ وجلَّ: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، فيقول: الإسلام دينٌ يتيح للإنسان الحرية في أنه إن شاء كان نصرانيًّا، أو يهوديًّا أو

مسلمًا، أو مجوسيًّا، أو بوذيًّا؛ لأن الله قال: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، فيظن أن هذا الأسلوب أسلوب تخييرٍ مجرد، وهذا الأسلوب عند العرب معروفٌ، هو أسلوب تهديدٍ؛ لأنه قال بعدها: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩]، فهذا أسلوب تهديدٍ، مثل ما تقول لإنسان: اضربني إن شئتَ، تقصد بذلك تهديده، يعني إن ضربتني فإن يدك لن ترجع إليك من شدة ما أنت واثقٌ من نفسك، وقوتك، وسرعة ردك، ولكن بعض الناس لا يدرك هذا الأمر.

وبهذا نقول: يجب على المسلم أن يحذر أن يقول في تفسير القرآن إلا بعلمٍ، كيف يكون بعلمٍ؟ إما أن يكون من أهل التخصص، وإما أن يرجع إلى العلماء فينقل كلامهم، وإما أن يرجع إلى كتب التفسير بشرط أن تكون عنده الإمكانات الصحيحة للقراءة في كتب التفسير، فإن قلتَ: كتب التفسير تحتاج إلى إمكاناتٍ؟ نقول: نعم، ليس كل إنسانٍ مؤهلًا أن يقرأ في كتب التفسير، ويفهم ما فيها بشكلٍ صحيحٍ، ويؤكد ذلك ويدل عليه ما سنقرؤه بعد قليلٍ في كلام شيخنا -رحمه الله- على أي شيءٍ يُحمل اختلاف المفسرين -رحمة الله عليهم-، فأنت تقرأ في كتب التفسير اختلافًا كثيرًا، وتظن أن هذا الاختلاف نوعٌ من الشتات والتضارب والتضاد الذي لا تدري معه ما هو المعنى المقصود، ولكن لو جلستَ بين يدي العلماء، وتعرفت على علم أصول التفسير، وعلى علم القواعد في التفسير، فإنك ستخرج من ذلك بقواعدَ نيرةٍ تستطيع معها الخوض في بحار كتب التفسير، وبكل سلامةٍ، وبكل سلاسةٍ ويسرٍ.

ولعلنا نشاهد هذا -إن شاء الله- في كلام الشيخ بعد قليلٍ.

{قال -رحمه الله: المرجع في تفسير القرآن، يُرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ- كلام الله تعالى : فيفسر القرآن بالقرآن ، لأن الله تعالى هو الذي أنزله ، وهو أعلم بما أراد به . ولذلك أمثلةٌ منها:

أولًا: قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

ثانيًا: قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢]، فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣] .

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ [النازعات:٣٠]، فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣١، ٣٢].

ب- كلام رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مبلغٌ عن الله -تعالى- فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى كلامه.

ولذلك أمثلة منها:

أولًا: قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فقد فسر النبي -صلى الله عليه وسلم- الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن

جرير وابن أبي حاتم صريحًا من حديث أبي موسى وأُبيّ بن كعب، ورواه جرير من حديث كعب بن عجرة، وفي صحيح مسلم، عن صهيب بن سنان عن النبي -صلى الله عليه وسلم- في حديث قال فيه: «فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عزَّ وجلّ»، ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]

ثانياً: قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقد فسر النبي -صلى الله عليه وسلم- القوة بالرمي . رواه مسلم، وغيره من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه-}.

بين الشيخ -رحمه الله- في كلامه السابق، أن طريق تفسير القرآن يكون على النحو التالي:

أول ما يفسر به القرآن هو القرآن، لماذا؟ لأنه لا أحد أعلم بكلام الله من الله، وأنت ترى أو تشاهد أن أدرى الناس بفهم معنى الكلام هو من تكلم بالكلام، هذا في كلام المخلوقين، فأدرى الناس بكلامك هو أنت؛ ولذلك إذا قلنا لك ماذا تريد بكذا؟ تقول: أريد به كذا وكذا وكذا، ويسكت كل أحدٍ يريد أن يبين معنى كلامك لأنك قد أوضحتَ عن معنى كلامك بنفسك ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ [النحل: ٦٠]، الله -عزَّ وجلَّ- أعلم بكلامه ومراده من غيره، فإذا تكلم ربنا -سبحانه وتعالى- بكلامٍ، فأردنا بيان معنى ذلك الكلام، فإننا نرجع إلى كلامه -سبحانه-، فإن وجدنا فيه ما يبين ذلك المعنى وجب علينا الرجوع إلى القرآن، وجعل القرآن المصدر الأول في بيان المعنى.

ومن أمثلة هذا ما ذكره الشيخ -رحمه الله- في قوله -سبحانه وتعالى- ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، من هم أولياء الله؟ لا نحتاج في تفسير أو بيان معنى أولياء الله إلى تفسير أحدٍ، لأن الله قال بعدها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]، فلو جاء إنسانٌ وقال: الولي هو من يسبح في الهواء أو يمشي على الماء، أو الولي الذي تجري على يديه الكرامات، قلنا لا: هذا معنى من عندك الولي، أما ما ذكر في الآية فالله -عزَّ وجلَّ- قد بينه، فمن آمن وكان من المتقين فهو من أولياء الله، سواءً مشى على الأرض أو مشى على الماء، قدر على السباحة في الهواء والطيران في الهواء أو لم يقدر على ذلك، هذا ليس من معنى ولاية الله -عزَّ وجلَّ- في قليلٍ ولا كثيرٍ.

ومن الأمثلة على ذلك مثلًا، ذكر الشيخ قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، قال الله -عزَّ وجلَّ: ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾، فلو قيل لنا ما الطارق المذكور في هذه الآية؟ قيل: لا يُرجع في هذا إلى شيءٍ سوى كلام الله -جلَّ وعلَا-، وكذلك في قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢]، فسرها النبي -صلى الله عليه وسلم- لما سأله الصحابة بقولهم: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه، فقال النبي -صلى الله عليه وآله وسلم: «ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]».

فبيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- بهذا الحديث أولًا: تفسير هذه الآية الواردة في سورة الأنعام، وأن الظلم المراد بها ظلمٌ خاصٌ وهو الشرك هذا أولًا.

وثانيًا: بيَّن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- مشروعية تفسير القرآن بالقرآن، فهو فسر القرآن بالقرآن ليقول لنا أن أولى ما يرجع فيه إلى تفسير القرآن هو القرآن نفسه، وبهذا نعلم أن تفسير القرآن بالقرآن هو أفضل طرق التفسير على الإطلاق، لأنه لا أحد أعلم بكلام الله من الله، ولكن ينبغي لنا أن نبين لكم جميعًا ولإخواننا المشاهدين، أن تفسير القرآن بالقرآن على قسمين:

قسمٌ صريحٌ واضحٌ جدًا، مثل ﴿ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ١- ٣]، ﴿ وَيلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ *وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١- ٣]، وهذا النوع يجب الرجوع إليه ويحرم تعديه.

النوع الثاني من تفسير القرآن بالقرآن، فيه اجتهادٌ من المفسر بأن يحمل آيةً على آيةٍ، فيقول هذه الآية مفسرةٌ لهذه الآية، وهذا لا يكون صحيحًا بكل حالٍ، بل بحسب قوة ذلك الاجتهاد، وقوة دليله، فأحيانًا يقول المفسر إن هذه الآية تفسيرها في قول الله -عزَّ وجلَّ- كذا، ويخالفه آخر ويقول ليس هذا تفسيرًا لهذه الآية، وإنما هذه الآية في معنًى وهذه الآية في معنًى آخر، فهذا النوع لا نقول بوجوب الرجوع فيه ووجوب المصير إليه، ولكن نقول هذا بحسب اجتهاد المفسر وموافقته الحق، فمثلًا في قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾ [التكوير: ١٧]، هل عسعس بمعنى أقبل أو بمعنى أدبر؟ قولان للمفسرين، لأنها في اللغة تحتمل أقبل وتحتمل أدبر، فلو قال إنسانٌ هي بمعنى أدبر، قلنا له لماذا؟ قال: لأن الله أقسم بإدبار الليل، فقال -جلَّ من قائلٍ- في سورة المدثر: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ

﴾ [المدثر: ٣٣]، أو "والليل إذا دبر" قراءتان، فأقسم بالليل عند إدباره، فإقسامه بالليل عند إدباره يدل على أن عسعس معناه أدبر.

فهل يلزمنا قول ذلك؟ نقول: لا، لماذا؟ لأن هذا يقابله قولٌ آخر، وهو أن عسعس بمعنى أقبل، وهناك آياتٌ أقسم الله فيها بالليل عند إقباله، وقال: ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ [الليل: ١]، وقال: ﴿ وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى﴾ [الضحى: ١، ٢]، فهذه الآيات وغيرها من الآيات التي أقسم الله فيها بالليل عند إقباله، دالةٌ على أن الله يقسم بالليل عند إقباله، فليس هذا بأولى بالحق من هذا، ولهذا نقول: هذا اجتهادٌ من المفسر، وهذا اجتهادٌ من المفسر.

ومثله مثلًا: قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ [عبس: ٢٠]، لو قال قائلٌ: ثم السبيل، السبيل هنا يعني طريق الخير والشر، قلنا له ما دليلك على ذلك؟ قال: لأن الله قال في القرآن: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣]، قلنا هذا محتملٌ ولكنه ليس قطعيًّا، لأن من السلف من فسر السبيل هنا بطريق خروجه من بطن أمه، قال: لأن السياق قد دل على ذلك ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ﴾ [عبس: ١٧- ٢٢]، الحديث عن مراحل خلق الإنسان إلى أن يغادر ويدفن، ثم ينشر.

فالسبيل المراد به طريق خروجه من بطن أمه بدلالة السياق، والقول الأول أن السبيل طريق الحق والباطل أو الخير والشر، بدليل ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾، وقوله -سبحانه وتعالى- ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]،

فمثل هذا النوع يعتبر اجتهاديًّا، ما معنى اجتهاديًّا؟ يعني قابل للأخذ والرد والقبول وعدم القبول، لكن الأولى حقيقةً هو الرجوع إلى البحث بشدة عن تفسير الآية بآيةٍ أخرى من كتاب الله -عزَّ وجلَّ-، ومن أعظم من كتب في ذلك وحرص عليه، الحافظ ابن كثير في تفسيره، تفسير القرآن العظيم، فإنه اعتنى بهذا عنايةً بالغةً جدًا، ثم جاء من بعده محمد الأمين الشنقيطي -رحمه الله- وهو عالمٌ ضليعٌ في علوم الشريعة واللغة، فأفرد هذا النوع في تفسيره أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، فأخذ جهد ابن كثير وأضاف عليه أشياءً أخرى، وصار بهذا من أجمع ما كتب في تفسير القرآن بالقرآن، ويظن بعض الناس أن تفسير القرآن بالقرآن شيءٌ قليلٌ، ولكن الحقيقة خلاف ذلك، بل تفسير القرآن بالقرآن شيءٌ كثيرٌ.

أما النوع الثاني أو الطريق الثاني، إذا لم نجد تفسير القرآن بالقرآن فإننا نلجأ إلى السنة، فنبحث عن تفسير القرآن في سنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، والنبي -صلى الله عليه وسلم- من أهم مهماته وأعظم ما كُلف به هو بيان القرآن ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]، فمن تعليمهم الكتاب أن يعلمهم ألفاظ الكتاب ومعانيه، ولذلك الصحابة كانوا إذا أشكل عليهم شيءٌ في القرآن رجعوا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

وبيان السنة وتفسيرها للقرآن على نوعين: هناك نوعٌ صريحٌ، واضحٌ جدًا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- أراد أن يفسر القرآن، وهذا يجب الرجوع فيه إلى

تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم-، مثل سؤال الصحابة للنبي -صلى الله عليه وسلم- لما قالوا في قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، قالوا: يا رسول الله وأينا لم يظلم نفسه؟ فها هنا فسر النبي -صلى الله عليه وسلم- لهم معنى الظلم المراد في الآية، وقال: « ليس كما تظنون، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ »، يعني أن المراد بالظلم هنا هو الشرك المذكور في سورة لقمان، فهنا يجب المصير إلى تفسير النبي -صلى الله عليه وآله وسلم.

النوع الثاني من تفسير السنة للقرآن، هو أن يجتهد المفسر في بيان معنى آيةٍ بحديثٍ من دون أن يكون في الحديث التصريح بتفسير الآية، لكن المفسر رأى أن الحديث يبين معنى الآية، قد تقول مثلًا في قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]، جاء في الحديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قوله: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ، فأكثروا من الدعاء فقمنٌ أن يستجاب لكم »، فقمنٌ أي حريٌّ أن يستجاب لكم، فقوله: « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ » لم يذكر فيها الآية، وليس فيها معنى قوله -تعالى- ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ أن المراد بها أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدٌ، ولكن هو استنباطٌ من المفسر، قرأ الحديث ووجد أن معناه يوافق معنى الآية، وهذا ظنيٌّ، بمعنى أنه يحتمل أن يكون المفسر قد أصاب فيه الحق، ويحتمل أن يخالف في ذلك ولم يصب فيه الحق، بحسب ما عنده من الاستدلال والوضوح في المعنى، وعلى كلٍّ لا شك أن الرجوع إلى السنة يعتبر هو

الطريق الثاني لتفسير القرآن الكريم، لأنه لا أحد من الخلق أعلم بكلام الله من رسول الله -صلى الله عليه وسلم.

ولذلك وجب الرجوع إلى تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للقرآن، ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فأهم مهمات النبي -صلى الله عليه وسلم- بيان ما أنزل، قد يكون بيانه مرةً بالكلام، قد يكون بالفعل، قد يكون بالإقرار.. الخ.

{الكتب التي اعتنت بهذا النوع من التفسير}.

تفسير القرآن بالسنة، طبعًا كتب السنة التي فيها باب في تفسير القرآن، ذكرت طرفًا من ذلك، هذا النوع الأول، مثلًا في صحيح البخاري كتاب التفسير، أيضًا في سنن الترمذي كتاب التفسير، لكن في صحيح مسلم ما فيه من التفسير شيءٌ، فكتب السنة بعضها اعتنى بجمع بعض الأحاديث الواردة في تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- للقرآن.

يأتي بعد ذلك الكتب التي اعتنت بجمع التفسير المأثور، كتفسير ابن جرير وتفسير ابن أبي حاتم، فما يرد عندهم حديثٌ يرون أنه يفسر آيةً من كتابٍ إلا ذكروها، ولذلك بعضهم مقلٌّ وبعضهم مكثرٌ، لكن من أعظم من اعتنى بهذا من المفسرين المشهورين، الإمام الحافظ عماد الدين ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، فابن كثير -رحمه الله- كان محدثًا، ولذلك حاول أن يربط كل حديثٍ في السنة يرى أن له صلةً بآيةٍ من كتاب الله أن يذكره، وهذا مما كبر كتاب تفسير ابن كثير، فأهم شيءٍ جعل تفسير ابن كثيرٍ يكبر بهذه الصورة، هو كثرة الأحاديث

التي يوردها ابن كثيرٍ في معنى الآية، قد يكون بعضها قريبًا جدًا أو واضحًا صريحًا، وبعضها يغلب على الظن أنه في معنى الآية، وبعضها يكون يلتقي في معنى الآية بنوعٍ ما من الالتقاء أو التفسير والإيضاح.

فهو من أعظم من عني بهذا النوع من تفسير القرآن وهو تفسير القرآن بالسنة النبوية، وهناك طبعًا مثل السيوطي -رحمه الله- الذي جمع كتابه في الدرر المنثور للتفسير بالمأثور، ولكنه لم يقصد إلى هذا بالذات، وإنما قصد أن يجمع ما في كتب المفسرين الذين رووا التفاسير المأثورة، كتفسير ابن عباس وابن مسعود وعلي وغيرهم من الصحابة والتابعين، فجمعه جميعًا من دون أسانيد، وأحال إلى تلك الكتب التي وقعت بيده وهو كتابٌ نفيسٌ جدًا في بابه، لكنه لم يقصد إلى جمع الأحاديث الواردة في تفسير النبي -صلى الله عليه وسلم- إلا أن تكون صريحةً وواضحةً أو تكون في أسباب النزول.

{ج- كلام الصحابة -رضي الله عنهم- لاسيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير، لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق، وأسلمهم من الأهواء، وأطهرهم من المخالفة التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب. ولذلك أمثلةٌ كثيرةٌ جدًا منها:

أولًا- قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، فقد صح عن ابن عباس -رضي الله عنهما-: أنه فسر الملامسة بالجماع}.

النوع الثالث أو الطريق الثالث من طرق التفسير، تفسير القرآن بكلام الصحابة، ولماذا الصحابة؟

أولًا: لأن الصحابة تلقوا القرآن عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لفظًا ومعنى، كان إذا أشكل عليهم شيءٌ سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهم أعلم الأمة بتفسير القرآن بلا نزاعٍ، ولذلك جعل العلماء لكلامهم في تفسير القرآن مزيةً ليست لغيرهم، أضف إلى ذلك أنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبًا، وأتقاهم سريرةً وأبعدهم عن البدع، فلا يعرف في أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مبتدعٌ واحدٌ، كما أنهم كانوا هم أهل اللغة التي نزل بها القرآن، وتعرفون عماد التفسير هو اللغة، فأكثر الناس علمًا باللغة لا شك أنه سيكون أحظاهم بفهم معاني كلام الله -عزَّ وجلَّ-، وإن كان التفسير لا يقف على اللغة وحدها ولكن اللغة تعتبر العامود الأعظم في بيت التفسير، فالذي يتمكن من اللغة يتمكن من أهم أعمدة التفسير.

والصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- لم يأخذوا هذه اللغة عن غيرهم، هي لغتهم أصلًا، والقرآن نزل بهذه اللغة التي كانوا يتحدثون بها ويفهمونها على السليقة، ولا يحتاجون إلى أحدٍ أن يبين لهم كثيرًا من معاني القرآن الكريم، ولذلك ما احتاجوا هم في البيان أو في إيضاح معاني القرآن إلى أن يسألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عن كل آيةٍ وكل حرفٍ، لأن كثيرًا منها نزل بلغتهم البينة الظاهرة الواضحة التي يفهما كل واحدٍ منهم، ولا يشكل على الواحد منهم معنى

الآية، ولكنهم سألوا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- عما يشكل عليهم، أو عما تعارض في الظاهر لديهم، أو نحو ذلك.

أضف إلى ذلك أنهم شاهدوا التنزيل، بمعنى أنه عندما نزل القرآن على مواطن وعلى أحوالٍ وغزواتٍ وهجرةٍ، وأشياءٍ من هذا القبيل، كانوا يشاهدون الآيات وهي تنزل، ولا شك أن من يشاهد ذلك سيكون فهمه للقرآن أفضل من فهم إنسانٍ لم يفعل ذلك أو لم يشاهد ذلك كله، الآن نحن بأحداث زماننا هذا أدرى ممن سيأتي بعدنا بمائة عامٍ، أليس كذلك؟ قد لا نكون نطالع الأخبار لحظةً بلحظةٍ لكن نحن نفهم كل المجريات التي تدور حول الحدث، ولذلك نفهمه بصيغةٍ صحيحةٍ، من سيأتي بعدنا، بعد مائة سنة يحتاج يقرأ يمكن ثلاثمائة، أربعمائة، خمسمائة صفحةً، ليفهم هذا الحدث ويضعه في موضعه الصحيح، ولذلك نقول إن الصحابة قد فهموا القرآن فهمًا لا يمكن أن يجاريه فيه من جاء بعدهم، أضف إلى ذلك أيضًا أن الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- قد عرفوا أحوال الناس الذين نزل القرآن فيهم، كانوا يعرفون العرب عاداتهم، يعرفون اليهود حقائقهم، يعرفون المنافقين، يعرفون النصارى الذين جاءوا إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- وناظروه، وتحاجوا معه، يعرفون الروم والفرس، الذين تحدث القرآن عنهم من فرقٍ وطوائف وقبائل وغير ذلك، كان الصحابة هم أعرف الناس بهم، بخلاف من جاء بعدهم فإنهم يعرفونهم عبر النقل والرواية والتاريخ، ولا يمكن أن يستوي هذا وهذا، ولذلك يجب أن يقدم تفسير الصحابة على تفسير من جاء بعدهم، فنحن بهذا نقول يجب الرجوع إلى الصحابة في تفسير القرآن.

وهذا يا إخواني يعتبر عندنا أصلٌ أصيلٌ في فهم التفسير، الآن بعض الناس يقول القرآن باللغة العربية، ونحن من حقنا أن نفهم الآية كما تدل عليه قواميس اللغة، نقول: لا، هذا غير صحيحٍ، لننظر ماذا قال من نزل عليهم القرآن في معنى الآية، لأنهم قد يحملون معناها على شيءٍ خاصٍ أو يعممون معناها أو يطلقونه، أو يقيدونه، أو يحملون اللفظة العربية على أحد معانيها، وكلهم يطبقون على ذلك ولا يحملونها على المعنى الآخر، فمن يدل يعني إلى من نرجع في هذا؟ نرجع إليك أنت الذي أتيت بعد ألفٍ وأربعمائة سنة، أو إلى ابن عباس الذي علم تفسير القرآن وأخذه من فم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ومن أصحاب رسول الله الكبار، الذين نرجع إليهم في فهم دين الله وفي فهم كلام الله -عزَّ وجلَّ-؟ لا شك أن هؤلاء أولى بتفسير القرآن مني ومنك ومن كل أحدٍ.

ولذلك نقول لمن أراد أن يفسر القرآن، يجب عليك أن ترجع وتنظر ماذا قال أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في تفسير القرآن، ولا يجوز لك أن تخالفهم في ذلك التفسير، فإنك إن خالفتهم فأنت على غير جادةٍ قطعًا، لأنه لا يمكن أن تهتدي أنت إلى التفسير ويضل عنه أصحاب رسول الله، وأنا أتعجب الآن، بعض المعاصرين وخصوصًا ما يتحدثون في قضايا الإعجاز العلمي أو بعض المكتشفات التي يريدون حمل الآيات عليها، يقولون بكل بجاحةٍ هذه الآية لم يفهمها الناس والآن نحن فهمناها، نقول لا يمكن هذا، فإن قلتَ أنت بهذا تمنع أن يكون هناك فهومٌ جديدةٌ لكتاب الله، أقول لا أمنع، ولكني أمنع أن تقول إن الصحابة لم يفهموا كتاب الله، فما فهمه الصحابة صحيحٌ، فإن كان

عندك شيءٌ من الفهم الزائد الذي لا يناقض ما جاء عن الصحابة فلا بأس، بشرط أن يكون ذلك صحيحًا ومستقيمًا مع السياق ومع اللغة، وأشياء أخرى نشترطها لمن يريد أن يأتي بمعنًى إضافيٍّ إلى المعنى الذي تفهم عليه الآية، لكن لا يمكن أن تكون أنت فهمت الآية والصحابة لم يفهموا الآية، لأننا لو قلنا بذلك لزم منك أن تخلو العصور الماضية من قائمٍ لله بالحجة، وهذا لا يليق، معنى هذا أن الأمة كانت ضائعةً وعلى مدى ألفٍ وربعمائة سنة، وجئتَ أنت أيها الإمام المجدد الكبير العظيم الذي صار علمك أعظم من علم أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن عباس وابن مسعود وغيرهم من جباهزة الصحابة وعلماء الأمة الكبار، الذين أطبقت الأمة على جلبتهم وفضلهم وعلو كعبهم في العلم، لا يمكن، من هذا الذي عنده عقلٌ يقول هذا ممكنٌ، وأنا أتعجب من بعض هؤلاء، عنده نيةٌ حسنةٌ وعنده حماسٌ لدين الله، ويريد أن يقدم للناس كتاب الله -عزَّ وجلَّ- ويقول مثل هذه المقالات، التي لا يتصور ما يترتب عليها من هذه الضلالات العظام، فليحذر يا إخواني كل مسلمٍ أن يقول مثل هذا الكلام.

فنحن نرجع إلى كلام أصحاب رسول الله، وما جاءنا من فهمٍ جديدٍ أو استنباطٍ نريد أن نستنبطه من الآية، يجب أن يكون إما موافقًا لكلام الصحابة، أو في أسوء الظروف أن لا يضاده ويمحوه ويقضي عليه.

ذكر الشيخ مثالًا لتفسير الصحابة، من عادة الشيخ -رحمه الله- أن يختار مثالًا -كما يقال- ضربة معلم، يحقق به أكثر من هدف، وهذا حقيقة ذكاءٌ في التعليم، وقدرةٌ وقوةٌ على اختيار الأمثلة التي يحسن بها المثال، فلما أراد الشيخ أن

يضرب مثالًا ما جاء بأي آيةٍ، ذكر قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾، فقوله: ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، قال إن ابن عباس فسرها بأن الملامسة هنا الجماع، وأراد الشيخ بهذا الرد على من قالوا إن لامستم بمعنى لمستم، وأن المراد بالآية الملامسة بمعنى الجماع، فإن قلتَ ألا يمكن أن نحملها على معنى اللمس المجرد، نقول هذا يخالف الحديث الصحيح، لأنه قد ثبت عن عائشة وغيرها -رضي الله تعالى عنهم- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يقبّل ثم يصلي ولا يتوضأ، مما يدل على أن الملامسة المراد بها في الآية هي الجماع، نعم هذا ما أراده الشيخ -رحمه الله- في ضرب هذا المثال المحدد.

{قال -رحمه الله:

د- كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة -رضي الله عنهم- ، لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة، وأسلم من الأهواء ممن بعدهم. ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرًا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيميه: إذا أجمعوا -يعني التابعين- على الشيء فلا يرتاب في كونه حجةً، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجةً على بعضٍ ولا

على من بعدهم، ويُرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك.

وقال أيضا: من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك، كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطأه، ثم قال: فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم، فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا}.

ذكر الشيخ بعد تفسير الصحابة، أن الطريق الرابع من طرق التفسير هو تفسير القرآن بكلام التابعين، لماذا كلام التابعين؟ نقول لأنهم أخذوا القرآن عن الصحابة، ولأنهم كانوا في عصر الاحتجاج اللغوي، فهم من أعلم الناس بكلام العرب، ولأن البدع كانت في زمانهم أقل ممن جاء بعدهم، لا نقول ما كان عندهم بدعٌ، بل كانت البدع قد بدأت، يعني تشييعٌ وكذا لكن كانت قليلةً وكانت ضعيفةً، ولم تتمكن كما تمكنت فيمن جاء بعدهم، ولأنهم أيضاً أقرب الأمة إلى العهود النقية السالمة، ولا شك أن الإنسان كلما كان أقرب إلى العهد الصحيح والنقي البعيد عن الفتن والبدع، سيكون نظره صحيحًا وبصره صائبًا، ولذلك رجعت الأمة إلى تفسير التابعين فما زالوا منذ عهودٍ بعيدةٍ ينقلون تفاسير التابعين على وجه الاحتجاج بها.

لكن هل يحتج بها بكل حالٍ؟ نقول: إن أجمعوا فكلامهم حجةٌ بلا شكٍ، وإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجةً على بعضٍ، لو كان عندنا قولان لعكرمة ومجاهد، فإن عكرمة لا يقول لمجاهد يجب عليك أن تتبع قولي لأني أنا

تابعيٌّ، ولا يجب على مجاهد أن يقول أو لا يجوز أن يقول مجاهد لعكرمة اتبع قولي لأني أنا تابعيٌّ، لأن قول بعضهم ليس حجةً على بعضٍ، كذلك لا يكون حجةً على من بعدهم، يعني لا يقول أحدٌ من الناس يجب علينا أن نتبع عكرمة لأنه تابعيٌّ، نقول فيه مجاهد أيضًا لكن قال بخلاف قوله، إذًا ماذا نعمل في هذه الحال؟ نرجح بين قولهم بالمرجحات المعروفة، باللغة، بالصياغ، بأدلة الكتاب، والسنة، مقاصد الشريعة، أشياء من هذا القبيل ترجح أحد القولين على الآخر، لكن السؤال يأتي مرةً أخرى: هل يجوز لنا أن نخرج عن أقوالهم؟ نقول: إذا ثبت لدينا أنهم اختلفوا على قولين أو أكثر وضُبطت هذه الأقوال، فلا يجوز لمن جاء بعدهم أن يخرج عن أقوالهم، لأن الخروج عن أقوالهم يلزم منه، ألا يكون أحدٌ منهم قد أصاب الحق، وهذا محالٌ، لأن الله -عزَّ وجلَّ- قد عصم هذه الأمة أن يخلوَ عصرٌ من عصورها من قائمٍ لله بالحجة.

وبهذا نقول إنه يجب أن يكون مَن بعدهم، يتخير من أقواله، أو يأتي بقولٍ يدور في أقوالهم، يعني يجوز أن يؤتى بقولٍ زائدٍ لكن مأخوذٌ من أقوالهم، لا أن يقول كلهم لم يصيبوا الحق، والحق في قولٍ لم يأتوا به ولم يطلعوا عليه ولم يعرفوه، وبهذا نعلم أهمية تفسير التابعين ولذلك العلماء تتابعوا على نقل أقوالهم، كمجاهد وعكرمة وابن عالية وزيد بن أسلم، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وطاووس بن كيسان اليماني، وعددٍ كبيرٍ من هؤلاء الجباهزة، نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يتغمدهم بواسع رحمته.

{هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي، أخذ بما يقتضيه الشرعي، لأن القرآن نزل لبيان الشرع، لا لبيان اللغة إلا أن يكون هناك دليلٌ يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به}.

يقول الشيخ -رحمه الله- في كلامه هذا: إذا لم نجد تفسير القرآن في القرآن، ولا في السنة، ولا في أقوال الصحابة، ولا في أقوال التابعين، فإننا نرجع بعد ذلك إلى ما تقتضيه اللغة وما يدل عليه السياق، وهو ما يسمى عند العلماء تفسير القرآن باللغة، أو تفسير القرآن بالاجتهاد الذي عماده اللغة، فإننا لو وجدنا في الآية أو في الكلمة أو المعنى هذا مفسرًا لا في القرآن ولا في السنة ولا في كلام الصحابة ولا في التابعين، نرجع بعد ذلك إلى اللغة وما يحتف بالآية من القرائن والسياق الذي يدل على المعنى، وهذا هو الذي صار عليه العلماء والمفسرون -رحمهم الله-، فإنهم إذا وجدوا آيةً لم يجدوا فيها تفسيرًا لمن قبلهم، اجتهدوا في تفسيرها بناءً على هذا الأمر.

فإن جاءت اللفظة ولها معنيان: معنًى لغويٌّ ومعنًى شرعيٌّ، أو اصطلاحٌ لغويٌّ واصطلاحٌ شرعيٌّ، فأيهما يقدم، المعنى الشرعي أو المعنى اللغوي؟ قال الشيخ: يقدم المعنى الشرعي، لماذا يقدم المعنى الشرعي؟ لأن القرآن نزل لبيان الشرع لا

لبيان اللغة، القرآن لم ينزل لكي يكون كتاب لغةٍ، معجمًا أو قاموسًا يبين المعاني اللغوية، نزل ليبين مصطلحاته هو ومعانيه التي يريدها من العباد أن يفهموها ويمتثلوها ويعملوها بها، فمثلًا: كلمة الصلاة تطلق على الدعاء وتطلق على الصلاة الشرعية المعروفة، فإذا وردت كلمة صلاة في القرآن، الأصل نحملها على ماذا؟ نحملها على المعنى الشرعي، لأن القرآن لا يريد معاني كلمة الصلاة في اللغة، وإنما يريد معناها الذي جاء القرآن ببيانه وأمر العباد به، إلا أن يكون هناك دليلٌ يدل على أن المراد بالآية المعنى اللغوي دون المعنى الشرعي، وسيضرب الشيخ بذلك مثالًا في موضوع الصلاة، ونحن ممكن أن نزيد عليها في أشياءٍ أخرى.

لكني أظن أن وقت البرنامج قد قارب، فإذا كان عندكم أسئلةٌ، نؤجل هذه المسألة إلى درسٍ قادمٍ.

{قال -رحمه الله: مثال ما اختلف فيه المعنيان، وقُدم الشرعي: قوله -تعالى- في المنافقين: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً﴾ [التوبة: ٨٤]، فالصلاة في اللغة الدعاء، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفةٍ مخصوصةٍ فيقدم المعنى الشرعي، لأنه المقصود للمتكلم المعهود للمخاطب ، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليلٍ آخر}.

يقول مثلًا: مثال ما كلمة جاء فيها معنيان: معنى لغويٌّ ومعنى شرعيٌّ، قول الله -عزَّ وجلَّ- ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ولَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، فإن المراد بالصلاة هنا هل هي لا تصلِّ بمعنى لا تدعُ؟ وإلا لا

تصلِّ أي لا تصلِّ صلاة الجنازة؟ لا شك أن المراد الثاني، بأن الصلاة في الأصل تطلق على الصلاة الشرعية، فالآية تدل على النهي عن صلاة الجنازة على أحد هؤلاء المنافقين الذين ثبت نفاقهم عند النبي -صلى الله عليه وسلم- كعبد الله بن أُبي، لماذا قلنا ذلك؟ نقول: لأن القرآن نزل لبيان المعاني الشرعية وليس لبيان المعاني اللغوية، فإن قال قائلٌ: أليس يحرم أيضًا الدعاء لهم؟ نقول: ليس من هذه الآية، من مكانٍ آخر، هذه الآية تدل على تحريم صلاة الجنازة.

لعلنا نقف عند هذا الحد، نلتقي -إن شاء الله- في المجلس القادم -بإذن الله عزَّ وجلَّ- لنجلي هذه القاعدة العظيمة التي ذكرها الشيخ في ختام هذا الكلام النفيس، ونبين بعض الأمثلة لها.

إلى اللقاء، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.